نفســـــية الطبقات

للدكتور جواد علي

لاحظت خلال إقامتي الطويلة في برلين وهامبرك والمدن الألمانية الأخرى اختلافاً كبيراً بين مقاطعة ومقاطعة ، وبين طبقات مدينة واحدة أحياناً في اللغة والأخلاق والمعاملات والمثل العليا وشكل الوجه وتركيب الجسم . وقد زاد انتباهي هذا موضوع البحث العنصري الذي استولى على الجامعة والمدرسة والحانوت والحياة اليومية في ألمانيا الهتلرية . فقلت : مادام الشعب الألماني شعباً جرمانياً واحداً من دم وعنصر واحد ، فلم هذا الاختلاف بين المقاطعات ؟ ولم هذا البون بين الطبقات في المدينة الواحدة ؟ صرت أسجل ملاحظاتي هذه وميزات كل طبقة وأخلاقها في كل مدينة أنزل بها وفي كل بيت أحل به . كذلك فعلت أثناء زياراتي للمدن وبعض مدن انكلترة وباريس وليون واشتراسبرك ومارسيليا وروما ، وأكثر مدن إيطاليا وجنيف وبرن ولوزان وبراغ وماربنباد وويسبادن وغيرها من مدن چيكوسلوفاكيا (المرحومة) ؛ وكذلك بولندة والنمسا ودول البحر الأبيض المتوسط

توصلت إلى نتيجة ، وهي أن قواعد التفكير العامة ، وطراز المعاملات متقاربة ومتشابهة بين الطبقات الواحدة في الممالك المختلفة أولاً ، وهي أيضاً تتشابه مع تركيب الجسم وشكل الوجه والملامح ثانياً . فالطبقة الرابعة من سكان المدن مثلاً ، وهي التي يطلق عليها في أوربا اسم Proletariat [1] تستعمل لها لغة خاصة عامية وتضع لها مصطلحات تصطلح عليها وتقضي معظم أوقاتها في المحلات المنخفضة في الأرض (كالسراديب والدهاليز) ، وتأوي بكل سرور إلى المحلات المظلمة ذات النور القليل والمحلات الموثثة بأثاث خشن ابتدائي، يميل الشاب منهم إلى تجميل شعر رأسه وتجميده، مع أن ملابسه ممزقة رثة لا يهتم بها ، يميل كذلك بصورة عامة إلى الألوان (القاتمة) كالأحمر أو الأسود أو الأصفر . وتميل بصورة عامة إلى المخاطر إذ لا تفزع منها ، فإذا ركب أحدهم دراجة هوائية (بايسكل) أسرع بها كأنه في سباق . كذلك لا يبالون في حمل الأشياء الثقيلة من خطر صحي ، وهم يميلون بصورة عامة إلى رسم الأشكال المختلفة بالزرقة والحمرة على بشرتهم ، وإلى موسيقى غير موزونة مرتفعة مضطربة . ولا يبالون بإنفاق كل ما يحصلون عليه في مدة قليلة ، ولو أنهم حصلوا عليه بشق الأنفس ومخاطرات عظيمة ، فاللص ينفق المال الذي يسرقه بأقل من لمح البصر كما هو معروف وكذلك القمارون وقطاع الطرق[1] .

كذلك للطبقة الثالثة وهي العمال آداب ومعاملات ومثل خاصة وفن وذوق تنفرد به مع ميل إلى التبذير والكرم . وأجسام هذه الطبقة بصورة عامة أقصر من أبناء الفلاحين أو سكان المدن من الطبقتين طبقة الأعمال العقلية وطبقة الأشغال العملية والتجار ولكنها أكثر إنتاجاً في النسل من طبقتي سكان المدن ، وأقل من الفلاحين كما أن شكل رأسها أصغر من الطبقات الثلاث ، ويميل إلى الاستدارة . وفي المدن الصناعية تميل إلى لحم الخنزير وإلى اللحوم الباردة لأن النساء لا تترك العامل لذلك فليس لها الوقت الكافي للطبخ[2] . أما الطبقة الثانية وخصوصاً أصحاب رؤوس الأموال والتجار ، فهي تتكلم مثلاً بصورة أسرع من الفلاحين أو العمال ، ولا يميلون إلى التفكير العميق المنطقي ، وكذلك لها ذوق خاص تجاري في التأثيث وفي الفن والمعيشة[3] بينما الطبقة الأولى ذات أجسام طويلة وشكل الرأس كبير بالنسبة إلى الجسم فيها، والعظام فيها دقيقة والعضلات غير مفتولة بالنسبة إلى الفلاحين أو العمال، والوزن أثقل من العمال، وطفل الفقير في المدرسة يرى أصغر بمام تقريباً من طفل الغني الذي في عمره العمر[4] . وهذه الطبقة ـ وخصوصاً الغنية منها ـ غير مخصبة في إنتاج النسل ، وقد علل ذلك تعليلاً كثيراً لا يدخل في هذا

(١) الطبقة الأولى هي طبقة الموظفين وذوي الأعمال العقلية والطبقة الثانية هي طبقة الأشغال والأعمال العملية مثل التجار وأصحاب المهن والثالثة هي العمال

(١) انظر Niceforo Anthropologie der Nichtbesit Zenden Klassen ص ٤٢٦ كذلك كتاب العالم Lenny ص ٦٥

(٢) انظر Lomer Schädelmasse und Beruf 1907 (٦٤٧)

(٣) انظر Graf Basler Einführung in die Rassen und Gesel-lschafts Physiologie 1925 ص ١٢٧

(٤) E. Rietz im Arch f. Antropologie Bd1 1904 وكذلك O. Ammon Die natürl auslese beim meus-chen Bd 24 ص ٦٨ لسنة ١٨٩٤

الموضوع . ونرى من إحصائية عن قابلية النسل فى السويد أن كثيراً من العائلات العريقة تضمحل وتفنى لانقطاع نسلها[1]

والفرق بارز كذلك جسمياً وعقلياً بين سكان المدن وأبناء الأرض من الفلاحين والزراع فتحف الرأس والملامح الجسمية وشكل العظم ، وكذلك طراز التفكير واللغة، تختلف مظاهرها عن مظاهر سكان المدن ، وقد دل الإحصاء على أن ٤١ فى المائة من سكان مدينة برلين كانوا لائقين للخدمة العسكرية بينما كان ٦١ فى المائة من سكان الأرض يصلحون فى نفس الوقت[2] . فهذه النقاط تجعل المرء يسبح فى بحر من التعليل . وتدفع به إلى الاعتقاد بتأثير المهنة والمحيط على الإنسان عقليا وجسمياً . وزاد فى اعتقادى ذلك ما وجدته بصورة عملية من تقارب بين موسيقى الأكراد سكان المنطقة الكردية العراقية ورقصهم واختيار ألوان ملابسهم وبين سكان منطقة بافرن فى ألمانيا مثلاً مع ما بين الشعبين من الاختلاف . وهذا مايدفع الإنسان إلى دراسة عقليات الطبقات المختلفة ، والبحث عن القواعد المشتركة التى تتميز كل طبقة بها عن الأخرى

علمت الماركسية ذلك بتأثير الإنتاج على الجماعات ؛ فالعمل المادى الاقتصادى فى نظرها هو العامل الأول فى هذا الاختلاف وقد جاءت بأمثلة تحاول إثبات نظريتها هذه وجاءت بفلسفة مبنية على ذلك ، وعلى هذا الأساس تحاول إشعال نيران ثورة ليتخلص العمال وهم الأكثرية من نفوذ الأقلية المسيطرة ، ليبسطوا تفكيرهم وحضارتهم على الطبقة الصغيرة التى تعتبر رمز الحضارة العالمية فى العصر الرأسمالى الحالى . وهى تأتى بأمثلة من حياة الفرنسيين فى القرنين السابع والثامن عشر ، وكيف كان البلاط ورجاله يعتبرون أثقف طبقة فى المملكة يحتذى بهم وتقلد حركاتهم لنفوذ البلاط ورجاله بينما كان الوضع بالعكس فى انكلترة لنفوذ « الكونتيه واللوردات » فيها . حيث كان كبار المزارعين هم ممثلو انكلترة فى عالم الثقافة والحضارة[3] ويرون من جراء ذلك فكرة الوطنية فكرة ثانوية اصطناعية يمكن التعويض عنها بفكرة الوطنية المهنية والمصلحة المشتركة ويرون فى الكاثوليكية العالمية مثلاً نوعاً من الوطنية والاستقلال فلم لايتفق عمال العالم ويكونون لهم وحدة واحدة على أساس دكتاتورية العمال وتقارب المصلحة والفكر، يدعمون رأيهم ذلك بما بيديه الاشتراكيون على اختلاف حكوماتهم من تعاون تام واتفاق فى الطريقة والعمل والفكر وتقاربهم كلهم فى الفكر[1] وهذه تعارض النازية تماماً ، تلك النظرية التى تدعى بالعنصرية وتفوق الجنس الآرى على الأجناس الأخرى وتعارض كذلك حوادث التاريخ أيضاً . وقد قلنا إن هذه الطبقات تكيف لها لهجة خاصة تتكلم بها ، وهذا يعنى أن عقلية تلك الطبقة قد تغيرت عن عقلية الطبقة الثانية ، والذى يلاحظ بصورة عامة أن للصوص والسراق لغة خاصة واصطلاحات تتكلم بها، وكذلك يفعل النشالون ولهم طريقة خاصة فى إخراج الأصوات ، وسكان نابولى فى إيطاليا أو صيادو الأسماك فى انكلترة وألمانيا وغيرها من البلاد يخرجون الكلمات بصورة تختلف عن الزارعين أو التجار فهى بصورة عامة طويلة عريضة بينما نجد لغة التجار سريعة وقصيرة . هذه أشياء لوحظت وشوهدت بالتجربة[2] ، ونطق الإنكليزى الذى ينزل فكه إلى تحت يختلف عن نطق الفرنسى الذى يمد فتحة فمه إلى الجانبين[3] وذلك يعنى أن اللغة تتغير أيضاً مما لا مجال لبيان سببه فى هذا الموضوع . ولكن فى ذلك رداً بصورة عامة على من يقول إن اللغة تساوى العنصرية تماماً . نعم هى تمثل جزءاً من روحية الشخص ولكن ليست روحيته تماماً إذ لو كان ذلك لكان زنوج أمريكا الذين ينطقون اللغة الإنكليزية إنكليزاً بالعقل والتفكير ولأصبح مولدو أمريكا الجنوبية أسبانا بالنفس والخلق تماماً . وقد أجريت تجارب على أطفال أخذوا حين الولادة من أمهاتهم من زنوج ويابانيين لقنوا الألمانية فقط ونشئوا فى محيط ألمانى بحت فصاروا يتكلمون الألمانية وكأنهم ألمان أبا عن جد[4] . وقد أول ذلك الذين يقولون بهذه الفكرة بأن فى البشرية قابلية للنطق مطلقاً وفى كل طفل فى نفس الوقت ميل إلى الشذوذ عن نطق الأجداد

(١) انظر كتاب Fahlbeck Der Adel Schwedens 1903

(٢) انظر Thurnwald in arch f. Rassen u. Gesell3chafs Bd 54, ص ٨٧٨

(٣) انظر مجلة Die Gesellschaft 1928, 1928 ص ١٣٠

(١) انظر نفس المحل وكذلك كتاب Der Ausgang des Kapi-talismus 1928 ص ٥٣ وكذلك H. Freyer Die bewertung der wirtschaft im Philo. 1921

(٢) انظر كتاب العالم العالمى المشهور Wilhelm Wund المعروف بـ Völkerpsychologie IBand 1900

(٣) انظر مجلة Die Gesellschaft 1924 ص ١٣٠

(٤) انظر Georg Schmidt - Roher. mutter sprache ص ٢٢٣ لسنة ١٩٣٣